السياق ودوره في إبانة دلالة النص عند الزمخشري -الكشاف- نموذجا.

The context and its role in clarifying the sinificance of the text of Al-Zamakhchari-Al Kachef-as a model

فتيحة بلغدوش -زغاش*
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)
belgheddouche.fatiha@ensb.dz

تاريخ الإرسال: 2023/04/13	تاريخ القبول:2023/05/31

الملخص:

إنّ اللّغة لا يمكن أن تقف عند استعمال الكلمات المفردة ، وإنّما ترتيب تلك الكلمات في تراكيب ، واختلاف معانيها تبعا للمعنى المقصود في العبارة التي ترد فيها .لذلك لا يمكن أن يُفهم الكلام من ألفاظ مفردة ، فالكلمة عندما تدخل في تركيب ما ، فإنها تكتسب قيمتها من خلال ارتباطها بما يسبقها أو يلحقها من كلمات أخرى ، وأي تغيير في بنية التركيب النحوي ما هو إلاّ استجابة لحاجات المتكلم والمتلقي على السواء ، فالعلاقة بين التركيب والسياق قويّة متشابكة ولا وجود لإحداهما من دون الأخرى ، لأن اجتماعهما يؤدي إلى التعبير عن المقام الذي يريد المتكلم إيصاله للمتلقي.

الكلمات المفتاحية:- التراكيب- المتلقي - المتكلم- السياق –المقام

Abstract : That language cannot stop at the level of separate words, but in the order of these words within structures and in the difference of their meanings according to the wanted meaning of the sentence in which they are used. Because of that, speech cannot be understood from separate words; that if a word is given in a certain structure, it derives its value through its linking to other words that come before or after it. That any change in the grammatical structure is a response to both the speaker and the receiver's needs. Thus, the relation between context and structure is strong and complex that one does not exist without the other as their existence together results in describing the situation that the speaker wants to transmit to the receiver.

Keyword: language-separate words-structures the receiver**.**

* المؤلف المرسل: فتيحة بلغدوش -زغاش

مقدمة:

اهتمت الدراسات اللسانية الحديثة بالبحث في تحليل النصوص حيث ركزت علىالسياق ووسائله لتمييز النص عن اللانص وهذا ما أشار إليه كل من يول وبراون وغيرهما،إلاّ أنّ هذا المعيار قد سبق الحديث عنه اللغويون العرب الأوائل، ففي كتبهم نجد آراء وتنظيرات هامة تناولت النص ودرسته بإسهاب وجعلت من السّياق النصّي معيارا أساسيا لتحديد دلالة الكلمات، ومن هؤلاء الزمخشري في كتابه الكشاف .

وقد قام هذا البحث من أجل الإجابة على إشكالية رئيسية هي :

فيم يتجلى دور السياق في إيضاح دلالة النص القرآني عند الزمخشري؟

لا أحد ينكر خاصية القرآن الكريم في إعجازه اللّغوي فهو خطاب كامل متكامل بلغة تامّة ودلالة مطلقة. تتنوّع وتتعدّد دلالته لتعدّد المقاصد والسيّاقات. فكلّما انغمست في تراكيبه كلّما اتضحت لك دلالات مختلفة وظلال موحية تفرزها، متجدّدة رغم تكرارها في الكثير من المواضع. وباب البحث الدلالي في علاقته بالألفاظ ، وفاعلية السياق في إبانة المعنى من أشرف الأبواب التي تناولها العلماء المسلمون في كتبهم، واهتدوا في دراستهم لها إلى نتائج يعتمد عليها في فهم النصوص الشرعيّة واستنباط الأحكام منها،ولا نغالي إذا قلنا أنّ الجرجاني له السّبق إلى ذلك من خلال نظرية النظم ، رغم هذا هناك من أنكر هذه الجهود وادّعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعاني فجاء ردّ ابن جني شافيا كافيا إذ يقول : "إعلم أنّ هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها ، وأنزهها وإذا تأمّلته عرفت منه وبه ما يؤنقك ، ويذهب في الاستحسان له كلّ مذهب بك وذلك أنّ العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذّبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشِّعر تارةً ، وبالخطب أخرى ، وبالإسماع التي تلزمها وتتكلّف استمرارها فإنّ المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأفخم قدرًا في نفوسها. فأوّل ذلك عنايتها بألفاظها فإنّها لمّا كانت عنوان معانيها وطريقا إلى إظهار أغراضها ومراميها، أصلحوها ورتّبوها... ليكون ذلك أوقع لها في السّمع ، وأذهب بها في الدّلالة على القصد ."[1]

وهذا ما سيتبين لنا من خلال هذا البحث في جانبيه النظري والتطبيقي. وقبل أن نلج موضوع بحثنا لابد لنا من تطوافة قصيرة حول مفهوم قطب البحث (السياق) لغة واصطلاحا .

1-مفهوم السياق(Contexte):

1-1-السياق لغة .

عن معنى السياق أورد الخليل التعريف التالي: "سقته سِياقًا، ورأيته يسوق سياقًا؛ أي: ينزع نزعًا، يعني الموت، والساق لكل شجرٍ وإنسان وطائر[2]

وفي "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس (ت:395ه): "السين والواو والقاف: أصلٌ واحد، وهو حَدْوُ الشيء، يقال: ساقه يسوقه سَوقًا

والسيقة: ما استيق مِن الدوابِّ، ويقال: سُقْتُ إلى امرأتي صَداقها، وأسقته، والسُّوق: مشتقة من هذا؛ لِما يساق إليها مِن كل شيء.

والجمع أسواق، والساق للإنسان وغيره، والجمع سُوق، إنما سمّيت بذلك؛ لأنّ الماشيَ ينساق عليها، ويقال: امرأة سوقاء، ورجل أسوق، إذا كان عظيم الساق، والمصدر: السوق".[3]

وفي لسان العرب لابن منظور (ت711 ه): "ساق الإبلَ وغيرها يسوقُها سوقًا وسِياقًا، وهو سائق وسوَّاق. وساق إليها الصداقَ والمَهْر سياقًا وأساقه، وإن كان دراهمَ أو دنانيرَ؛ لأن أصلَ الصداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، وساق فلان مِن امرأته؛ أي: أعطاها مهرَها والسِّياق المهر.[4]

وقد أشار علماء العربية أمثال سيبويه وابن جني والجرجاني خاصة إلى السّياق في مؤلفاتهم المختلفة من خلال تركيزهم على ضرورة اختيار المقال المناسب للمقام المناسب .

1-2-السياق اصطلاحا

يعرّفه تمام حسان بأنّه : " ما انتظم القرائن الدالة على المقصود من الخطاب، سواء كانت القرائن مقالية أو حالية " [5]

وإذا دقّقنا في التعريفين (اللّغوي والاصطلاحي) للسّياق نجد تشابها بينهما فكل منهما يشير إلى التتابع والتلاحم وفق مؤثرات خارجية وداخلية.

وهذا ما أكَّده الدكتور تمّام حسّان إذ يرى أنّ المقصود بالسِّياق التّوالي، ومنه ينظر إليه من ناحيتين أولاهما: توالي العناصر التي يتحقّق بها التّركيب و السّبك و السِّياق في هذه الزّاوية يسمّى سيّاق النص.

الثانية: توالي الأحداث التي تصاحب الأداء اللغوي وكانت ذات علاقة بالاتصال ومن هذه الناحية يسمى سياق الموقف.[6]

وقد تباينت تقسيمات علماء اللّغة للسياق والمشهور أنهم قسّموه إلى أربعة أقسام:

- السياق اللغوي linguistique contexte
- السياق العاطفي emosional contexte
- سياق الموقف situational contexte
- السياق الثقافي cultural contexte

2-السياق عند العرب:

يعدّ الشافعي من الأصوليين، أوّل من نصّ على السيّاق وأهميّته في تحديد المعنى. فقد أشار إلى السيّاق بقوله:". وعاماً ظاهراً يراد به العام، ويَدْخُلُه الخاصُّ، فيُسْتَدلُّ على هذا ببَعْض ما خوطِبَ به فيه؛ وعاماً ظاهراً، يُراد به الخاص. وظاهراً يُعْرَف في سِياقه أنَّه يُراد به غيرُ ظاهره. فكلُّ هذا موجود عِلْمُه في أوّل الكلام، أوْ وَسَطِهِ، أو آخِرَه " [7]

وذهب الغزالي إلى أنّ هناك ألفاظًا لا تفهم دلالتها إلاّ بالحركات والإشارات وتعبيرات الوجه، وفعل المتكلم بصورة عامة يقول في هذا الشأن :" بَلْ هِيَ كَالْقَرَائِنِ الَّتِي يُعْلَمُ بِهَا خَجَلُ الْخَجِلِ، وَوَجَلُ الْوَجِلِ، وَجُبْنُ الْجَبَانِ وَكَمَا يُعْلَمُ قَصْدُ الْمُتَكَلِّمِ إِذَا قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ التَّحِيَّةَ أَوْ الِاسْتِهْزَاءَ، وَاللَّهْوَ، وَمِنْ

جُمْلَةِ الْقَرَائِنِ فِعْلُ الْمُتَكَلِّمِ، فَإِنَّهُ إذَا قَالَ عَلَى الْمَائِدَةِ: هَاتِ الْمَاءَ فُهِمَ أَنَّهُ يُرِيدُ الْمَاءَ الْعَذْبَ الْبَارِدَ دُونَ الْحَارِّ الْمِلْحِ[8].

وأشار الزركشي إلى أهمية السيّاق في فهم النّص القرآني قائلاً:" وَمِمَّا يُعِينُ عَلَى الْمَعْنَى عِنْدَ الْإِشْكَالِ...دَلَالَةُ السِّيَاقِ فَإِنَّهَا تُرْشِدُ إلى تَبْيِينِ الْمُجْمَلِ وَالْقَطْعِ بِعَدَمِ احْتِمَالِ غَيْرِ الْمُرَادِ وَتَخْصِيصِ الْعَامِّ وَتَقْيِيدِ الْمُطْلَقِ وَتَنَوُّعِ الدَّلَالَةِ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْقَرَائِنِ الدَّالَّةِ عَلَى مُرَادِ الْمُتَكَلِّمِ فَمَنْ أَهْمَلَهُ غَلِطَ فِي نَظِيرِهِ وَغَالَطَ فِي مُنَاظَرَاتِهِ "[9]

ومن علماء الأصول الذين اهتموا بالسيّاق للوصول إلى المعنى الذي يكمن في النصوصالشرعيّة، السّرخسي حيث يشير إلى أهميّة السّياق في إبانة المعنى فيقوله: "يكون النّص ظاهرا لصيغة الخطاب نصًا باعتبار القرينة التي كان السّياق لأجلها وبيان هذا في قوله تعالى: ﴿وأحلّ اللهُ البَيْعَ وحَرَّمَ الرِّبَا﴾ فإنّه ظاهر في إطلاق البيع نصٌّ في الفرق بين البيع والرِّبا بمعنى الحل والحرمة، لأنّ السِّياق كان لأجله"[10].

ونستطيع أن نلمس أقدم إشارات اللّغويين والنحويين إلى السياق عند الخليل ، ففي توجيهه للحذف في قوله تعالى ﴿حَتَّى إذا جاؤُها فُتِحَتْ أَبْوابُها ﴾ (الآية 73 سورة الزمر وقوله تعالى : ﴿ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب ﴾ البقرة 165 وقوله تعالى: ﴿ولو إذ وقفوا على النّار ﴾ النعام 27.عندما سأله تلميذه سيبويه عن الجواب في كلامهم ، فقال : "إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر ، الجواب في كلامهم ،لعلم المخبَر لأي شيء وضع هذا الكلام ."[11]

وبشكل عام يمكن أن نقول: إن العرب قد تنبهوا إلى أهمية السياق في فهم النص القرآني منذ عهد مبكر جدًّا. فقد روي أنّ أعرابيًا سمع رجلاً يقرأ هذه الآية هكذا ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾**38** (المائدة).فقال: الأعرابي" ما هذا بكلام فصيح، فقيل له ليس التلاوة كذلك وإنّما هي..." والله عزيز حكيم" فقال بَخٍ بَخٍ عزَّ فحكم فقطع"[12] فلولا السيّاق لما اهتدى هذا الأعرابي إلى المعنى الصحيح مع جهله للنص القرآني الصحيح .

هذا كلّه يثبت أسبقية العرب إلى اعتماد النّص كوحدة متكاملة من جهة وأهمية السّياق في إيضاح المعاني من جهة أخرى .

وقد انقسم السّياق عند هؤلاء إلى قسمين :

2-1-السياق الخارجي للنص القرآني الكريم، أو سياق الحال بمفهومه الحالي :

لقد أولى علماء التفسير خاصة أهميّة للظروف المحيطة بالكلام المعجز الغيٌّ من ذلك تقديم فهم أعمق له .وتجلى اهتمامهم في حديثهم عن أسباب النزول، ومكان النزول وخاصيّة المتلقّي ومنه نتج تنوّع في السّياق الخارجي بين: السِّياق المكاني، الزمني، الموضوعي، المقاصدي ،و السِّياق التاريخي.والجانب

الخارجي للسّياق هو ما تهتم به حديثا التداولية، أي النظر إلى كلّ العناصر الخارجية - نفسية ثقافية اجتماعية - المحيطة بالكلمة داخل استعمالها.

2-2-السّياق الداخلي (اللّغوي):

وهو الاهتمام بدراسة النّص بالنّظر إلى علاقة ألفاظه بعضها ببعض، وما تحدثه من تماسك وتناسق داخل التراكيب بالاستعانة بأدوات الرّبط وقرائن (لفظية ومعنوية) تساهم في إيضاح المعنى داخل النص وتزيل كل توهُّم .

3-السّياق عند الغرب .

أمّا عند الغرب فقد بدأت الإرهاصات الأولى للسّياق مع **فاندريسVendriyes** وتطوّرت مع **جون روبرت فيرثJR Firth 1890-1960** الذي أسّس قواعد النظرية السّياقية وأكّد على أهمية السّياق في عملية التحليل اللّغوي للنصوص ، و نادوا بضرورة اعتبار السياق من أبرز عوامل تحديد المعنى .

ولمّا خطّ**"فان دايك" (T.Van Dijk)**كتابة (النص والسياق) نظر إلى النّص نظرة متكاملة فكان اهتمامه منصبا على كلّ العناصر الدلالية و التداولية التي تساهم في الوصف والتحليل اللّغويّ حيث يقول :" في الدراسات اللّغوية عرف مصطلح تحليل النّص، وتفسير النّص حيث كانت العناية في الغالب موجّهة إلى الوصف المادي للنّصوص الأدبيّة بوجه خاص، علم النّص يستهدف ما هو أكثر عمومية و شمولية وهو يتعلق من جهة بكل أشكال النص الممكنة، وبالسياقات المختلفة المرتبطة بها، ويعني من جهة أخرى بمناهج نظرية و وصفية و تطبيقية ."[13]

أما ستيفن أولمان فيرى من خلال كتاباته أنّ السِّياق يتعدَّى الجملة أو العبارة إلى أبعد من ذلك إلى سيّاق (النّص) الذي اصطلح عليه فيما بعد. ويوضح ستيفن أولمن ذلك قائلا: "إنّ السِّيَاقَ يَنْبَغِي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقيّة السابقة والملاحقة وحسب بل والقطعة كلّها والكتاب كلّه، كما ينبغي أن يشتمل بوجه من الوجوه كل ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات[14].

فالسّياق يُعدّ عنصرًا هاما في النظرية النّصية سواء على مستوى تكوين النّص أوتحليله.ويرى أولمان أنّ النظرية السياقية إذا طُبِّقت بحكمة تمثِّل الحجر الأساس في علم المعنى.

4-الدلالة السياقية:

موضوع الدلالة هو المعنى اللّغوي و الذي ينطلق من معنى المفردة من حيث حالتها المعجمية و متابعة التطورات الدلالية و التغيّرات التي تأخذها الكلمة في السّياقات المختلفة، إذ يصعب تحديد الكلمة لأنّ الكلمة لا تحمل في ذاتها دلالة مطلقة و إنّما السّياق هو الذي يحدّدها،فالكلمة المفردة تلفُّها دلالتان: الأولى معجميّة و الثانية سياقيّة، تمثل الأولى المعنى الأساسي أو المفهوميّ لها، و قد عرّفه أحمد عمر مختار بأنّه " المعنى المتّصل بالوحدة المعجميّة حينما ترد في أقلّ سيّاق أي حينما ترد مفردة " [15]

فهي المعنى الذي تكتسبه اللّفظة داخل السّياق الذي وصفت فيه إذ تختلف من استعمال إلى آخر فإذا كانت اللّفظة متعدّدة المعاني، معناها متغيّر لا تتجلّى قيمته إلاّ داخل السّياق المستعمل فيه.

وإذا كنّا لا نعثر على هذا المصطلح (السّياق) عند اللّغويين العرب قديما، فهذا لا يعني أنّهم أهملوه وإنّما عرّفوه بمصطلح آخر هو المقام حين تفطّنوا إلى أنّ اللّغة ظاهرة اجتماعية، أو جامعة لمواقف اجتماعية فجعلوا" لكل مقام مقال "[16] وهذا هو الجانب الخارجي الذي كان محلّ اهتمام المفسرين خاصة ولا تسطع دلالة النص القرآني إلاّ بالرجوع إليه.

كما تنبّه اللّغويون كما أشرنا سابقا إلى السياق الداخلي (التركيبي) وهذا من خلال موضع اللّفظ داخل التركيبّ يقول الدكتور أبو موسى:" إنّ السّياق قوّة تحرّك التراكيب فينبعث من إشعاعاته ما يلائم بالنظر إلى ما يسبقها وما يليها" [17]

5-القرينة السياقية :

هي ما يكتنف السّياق من قيود تركيبية ، أو أشراط إفادة أو هما معا أو بعبارة أخرى هي الواسطة التي يُعتمد عليها للخروج باللّفظة من معناها المعجمي إلى معناها المقصود في إطارها النّصي ، يقول تمام حسان: "يتعدد معنى الكلمة في المعجم و لكن مجرّد أن يدخل في سيّاق معيّن، ينحصر وفق ما يمليه المقام، لأنّ في السّياق قرائن تساعد على الوصول إلى المعنى المقصود إضافة إلى القرائن الحالية [18]"

فلا يمكن إدراك المعنى من خلال السّياق إلاّ بتوفّر قرائن تساعد على ذلك مثل ذكر جملةسابقة أو لاحقة أو عنصر في جملة سابقة أو لاحقة ، أو في الجملة نفسها تحوّل مدلول عنصر آخر إلى دلالة غير معروفة له ومثال ذلك قوله تعالى :چ ڈ ڈ ژ ژ ڑڑ گ چ النحل، حيث تعدّ جملة (فلا تستعجلوه) قرينة لغوية سيّاقية تصرف الفعل (أتى) عن دلالته الزمانية في الماضي و (أمر الله) في سياق هذه الآية فسّر بأنّه قيام الساعة وقد أثّر الفعل بصيغة الماضي لتحقّق وقوع الأمر وقربه [19]

بحث العلماء العرب في القرائن السّياقية التي تعينهم على تحديد المعنى فذكر الأصوليون قرائن سياقية مقامية مثل القرنية الشرعية وأسباب النزول ،الفصل والوصل، والإضمار والإظهار، واختلاف نوع الجمل خبرًا وإنشاء ووقف النحويون عند بعض القرائن السّياقية - لفظيّة ومعنويّة - مثل التّنازع، والتقديم والتأخير، والاعتراض، وتوسيع الجملة، وتعارض المعنى والحذف .حيث "تمتدّ قرينة السّياق على مساحة واسعة من الرّكائز ، تبدأ باللّغة من حيث مبانيها الظّرفية وعلاقاتها النّحوية ومفرداتها المعجميّة وتشمل الدّلالات بأنواعها من عرفيّة إلى عقليّة إلى طبيعيّة كما تشتمل على المقام لما فيه من عناصر حسّية ونفسية واجتماعية [20]"

فكيف تعامل الزمخشري مع السياق للوصول إلى المعنى في النّص القرآني ؟

حاول الزمخشري في كشّافهتفسير القرآن الكريم معتمدا في ذلك السّياق الذي ورد فيه اللّفظ، فكثيرا ما كان يشير إلى أثر نظم الكلام في دلالة النّص ، حيث كانت نظرته إلى القرآن نظرة الفاحص في تأويله للمعاني وقد يجد للمعنى أكثر من تفسير، هنا يلجأ إلى طرح الآراء ثم يخرج بما يراه مناسبا دون الابتعاد عن فكره الاعتزالي.

والمدقّق في ثنايا الكشّاف يجد صاحبه يعتمد في الكثير من الأحيان على مبدأ التواصل بين المخاطَب والمخاطِب وهذا عن طريق خلق شخصية افتراضية يحاورها لبلوغ المقصد من الآية موضوع الدراسة موظِّفا الصيغة التالية: (فإن قلتَ :...؟، قلتُ:...)" وهو بهذا يكون أسبق إلى تطبيق النظرية التداولية من جاكبسون.

6-نماذج تطبيقية لقاعدة تحكيم السِّياق عند الزمخشري في الكشّاف .

كان للزمخشري نظره الدّقيق في الوقوف - في الكثير من المواضع في كشّافه –على أهميّة السّياق للوصول إلى مقاصد النّص القرآني ، حيث تجاوز حدود الجملة إلى تكامل النّص ، فنظر إليه نظرة شاملة كاملة ، فالنّص عنده لا يمكن تجزئته لأنّه وحدة متكاملة، فراح يدرس معاني الألفاظ داخل سياقها ، كما ركّز كثيرا على العلاقة القائمة بين عناصر الجملة فتعرّض إلى دلالة الحذف والتقديم والتأخير والوصل والفصل وغيرها من الظواهر اللّغوية التي ضرب لها أمثلة ساطعة الوضوح والتي يبدو جليّا تأثره في معالجتها ببلاغة الجرجاني، إذ جعل من البحث البلاغي مطيّة للوصول إلى مقاصد النّص القرآني وفي هذا البحث إشارة إلىمقتطفات منها.

6-1-دورالسّياق في تحديد دلالة حرف المعنى في القرآن الكريم .

أشار الزمخشري إلى بعض الأدوات القديمة التي تجدّد استعمالها في القرآن الكريم والتي نتجت عنها العلاقات اللّغوية الجديدة منها :(لا)النّافية التي تخرج عن معناها الأصلي وهو النفي إلى معنى مضاد وهو (نعم) للإيجاب أو الانتقال من النفي إلىالتأكيد كقولهتعالى :چ ى ى ي ي □ چالواقعة ، (فلا أُقْسِمُ)معناه فأقسم. و(لا) مزيدة مؤكّدة ....، ولا يصحّ أن تكون اللام لام القسم لأمرين، أحدهما: أنّ حقّها أن يقرن بها النّون المؤكّدة، والإخلال بها ضعيف قبيح. والثاني: أنّ (لأفعلن) في جواب القسم للاستقبال، وفعل القسم يجب أن يكون للحال" [21]

فسياق الآية يرشد إلى أنّ القسم بمواقع النجوم واقع، والدليل على ذلك القراءة الأخرى، فقدقرأ الكوفيون بتوحيد الموقع ، وقرأ الجمهور من قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين مواقع ، كما يخلو السّياق من أيّ قرينة تدلّ على أنّه قسمّ كخلو فعل القسم من النّون المؤكدة ،ومقتضى جعلها جوابا لقسم محذوف أن لا يكون القسم بمواقع النجوم واقعا، بل مستقبلا.

6-2-دورالسّياق في الكشف عن دلالة اللّفظ داخل النّص

الزمخشري في كشّافه ينطلق من اللّفظ فيغدقه بالمعاني التي يحتملها ثمّ يذكر معناه داخل السّياق فالمعنى عنده هو المقصد الرئيس واللّفظ يخدمه، وممّا وقف عنده الزمخشري للكشف عن علاقة اللّفظ بالسّياق في الوصول إلى المقصد قوله تعالى:چ ڤ ڤ ڤ ڤ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ چ البقرة.

"فإن قلتَ :كيف طابق قوله: (وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ) قولهم (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ) والأوّل في ذكر شأن الفعل لا الفاعل، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلتُ: القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه، فسلك في ذلك طريق أدّى إلى الغرض المطلوب. وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان. وإذا شهد عليهم بأنّهم في أنفسهم على هذه الصفة، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ما انتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت والقطع. ونحوه قوله تعالى: (يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَما هُمْ بِخارِجِينَ مِنْها) هو أبلغ من قولك: وما يخرجون منها. فإن قلتَ: فلم جاء الإيمان مطلقا في الثاني وهو مقيّد في الأوّل؟ قلتُ: يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه، وأن يراد بالإطلاق أنّهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لا من الإيمان باللَّه وباليوم الآخر، ولا من الإيمان بغيرهما" [22]

ففي الآية موضع الشّاهد انتقال من الجملة الفعلية (آمنا) إلى الجملة الاسمية (ما هم بمؤمنين). لأنّ في الجملة الاسمية نستشعر دلالة ثبوت الفعل واستقراره أمّا الجملة الفعلية فتشير إلى دلالة التغير وعدم الثبات لذا يرى الزمخشري أنّ اعتماد الجملة الاسمية أبلغ.

ويؤكد رأيه عندما يقف عند قوله تعالى:چ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ے ے ۓ ۓ چالبقرة،قائلا : "فإن قلتَ: كيف أوثرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو؟ قلتُ: لما في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستقرارها" [23]

3-6-السياق الزماني ودوره في إبانة المعنى .

وقف الزمخشري عند قاله تعالى:چئه ئه ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئىئد ى ى ي ي چ النمل ، مشيرا إلى ظاهرة العدول في الآية الأولى في قوله تعالى (ففزع) إذ السّياق الزمني يتحتّم تصريف الفعل في المضارع بوجود قرينة لفظية تدل على ذلك في قوله (وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) ويجيب الزمخشري على هذا بقوله :"فإن قلتَ: لم قيل فَفَزِعَ دون فيفزع؟ قلتُ: لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته وأنّه كائن لا محالة" [24]

فالأفعال الماضية أكثر دلالة على الثبوت ، بينما الأفعال المضارعة تدل على التحول والاستمرار. فالمقام يستدعي البقاء على حالة الفزع لهول الموقف .

كما أشار إلى تعاقب الأفعال و جزائها بين الحسنة والسيّئة في قوله تعالى:چ ٱ ب ب ٻ ٻ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ چالنمل ، وكأنّ هذا التعاقب في تسلسل الأحداث إشارة أخرى إلى تماسك النّص القرآني يلخّصه قائلا: " فانظر إلى بلاغة هذا الكلام،

وحسن نظمه وترتيبه، ومكانة إضماده، ورصانة تفسيره، وأخذ بعضه بحجزة بعض، كأنّما أفرغ إفراغا واحدا ولأمر ما أعجز القويّ وأخرس الشقاشق"[25]

كما وقف الزمخشري عند دور السّياق الزماني في إبانة المعنى في قوله تعالى:چ ذ ذ ث ث ڈ ڈ ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ چ الكهف، فكل من: (نسيّر وترى) ورد في الزمنالمستقبل وعطف عليه بـ(حشرناهم) في الزمن الماضي ، ويعلّل ذلك الزمخشري قائلا : "فإن قلتَ : لم جيء بـ(حشرناهم) ماضيا بعد نسيّر وترى؟ قلت: للدلالة على أنّ حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأهوال العظائم، كأنّه قيل: وحشرناهم قبل ذلك (موْعِداً) "[26].

فالحشر والجمع كان من لدن آدم -عليه السلام – ولمّا كان الحديث عن يوم القارعة وظّف الزمن المستقبل لأنّ الحدث لمّا يقع بعد ، فالحشر يسبق يوم الساعة.

4-6-دورالسّياق في الكشف عن دلالة الجملة داخل النص.

تبنّى الزمخشري نظريّة النّظم الجرجانية في كشّافه خاصة ما تعلّق بتموضع العناصر داخل الجملة تقديما وتأخيرا، فصلا ووصلا وحذفا ، نورد بعضها فيما يلي :

6-4-1-التقديم والتأخير.

من بين الظواهر اللّغوية التي تمسّ الجملة داخل النص، التقديموالتأخير، وقد تعرّض الزمخشري إليها في كشّافه معتبرا أنّ عدم التزام الترتيب في عناصر الجملة لا يؤثّر كثيرا في تغيّر الدّلالة وكأنّه برأيه هذا يبتعد عن النّظرية التي وصفها الجرجاني، والتي ركّز فيها على اتّساع دائرة المعنى بتنوّع ترتيبالعناصر في الجملة قائلا :"واعلم أنّ من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض" .[27]

ومن بين الآيات التي وقف عندها الزمخشري والتي جسّدت ظاهرة التّرتيب والتّقديم قوله تعالى :چ ي ي ت ت ث ٹ ٹ ڑ ڑ ک چالصافات.

أَئفْكاً: مفعول له، تقديره: أتريدون آلهة من دون الله إفكا، وإنّما قدّم المفعول على الفعل للعناية، وقدّم المفعول له على المفعول به، لأنّه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنّهم على إفكٍ وباطلٍ في شركهم. "[28].

فالمقصد الذي وقف عنده الزمخشري والذي كان وراء هذا التّقديم والتّأخير هو الإقرار بهول ما هم فيه من إفكٍ وباطلٍ في شركهم .

6-4-2-دلالة الحذف داخل السياق.

أولى الزمخشري عناية فائقة لظاهرة الحذف في النص القرآني، واعتبره كغيره من علماء العربية عاملا قويا لمتانة وجزالة العبارة والعرب قديما كانوا أكثر ميلا للإيجاز في كلامهم بالارتكاز على الحذف. فهو خصّيصة من خصائص العربية .

توقف الزمخشري عند قوله تعالى :چ د د ئا ى چ النساء.مشيرإلى أنّ الآية تحتمل دلالتين استنادا إلى السّياق الداخلي (التركيبي) والسّياق الخارجي (الحال الاجتماعي السائد). فالسّياق يومئ إلى حذف حرفي الجر "في" و"عن" في التّركيب ويترتّب عنه عدم القصد إلى تحديد أحد الاحتمالين في الفهم عند قراءة الآية ، فمعنى النّص يصلح أن يكون:" (وترغبون في نكاحهن)،أو على العكس من ذلك

(وترغبون عن نكاحهم)، فهل لنا أن نزعم هنا أنّ التعميّة مقصودة في النّص؛ لأنّ بعض يتامى النساء كنَّ من الجميلات اللاّتي يرغب الأولياء في نكاحهنّ، وكان البعض من الدّميمات اللاّتي يرغب هؤلاء الأولياء عن نكاحهن؟ إنّ الزّمخشري يلمّح تلميحًا إلى قصد التعميّة ولا أريد أن أصرّح وقد لمّح هو. وإن كنت أحبّ أن أشير إلى أنّ إسقاط حرفي الجرّ هنا يجعل الآية صالحة للمعنيين في وقت واحد.(29)وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ يحتمل في أن تنكحوهن لجمالهنّ، وعن أن تنكحوهنّ لدمامتهنّ.

وممّا يكثر حذفه من الاستعمال لدلالة السياق عليه حرف الجر.

6-4-3-تعاقب المعنى بين الحقيقة والمجاز

ذكرنا آنفا تأثر الزمخشري بالجرجاني خاصة من خلال كتابه (أسرار البلاغة)، ويبدو ذلك جليّا حينما لا يكتفي بالتّفسير الموضوعي للآية بل يغوص في معناها الخفي إن كانت تحمل ظلالا مجازيّة بعيدة عن الظاهر مرتكزا على السيّاق، ومن بين ما توقّف عنده من شواهد قوله تعالى: ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭼالبقرة.وفي سبب إسناد الختم إلى اللَّه عزّ وجل يستند الزمخشري في تفسيره هذه الآية إلى المجاز قائلا: "لا ختم ولا تغشيّة ثَمَّ على الحقيقة، وإنّما هو من باب المجاز، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه وهما الاستعارة والتمثيل. أمّا الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده، وأسماعهم لأنها تمجه وتنبو عن الإصغاء إليه وتعاف استماعه كأنّها مستوثق منها بالختم، وأبصارهم لأنّها لا تجتلي آيات اللَّه المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجلتها أعين المعتبرين المستبصرين كأنّما غطى عليها وحجبت، وحيل بينها وبين الإدراك. وأمّا التمثيل فأن تمثل حيث لم يستنفعوا بها في الأغراض الدينيّة التي كلفوها وخلقوا منأجلها بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستنفاع بها بالختم والتغطية"(30)

فالختم مسند إلى الله نصا، وهذا ما لا يأباه الزمخشري في كشافه ولكنّه لجأ إلى التأويل بالدليل العقلي والنقلي .

6-4-4-فاعلية التكرار في الإبانة عن المعنى داخل السياق

ظاهرة التكرار في القرآن الكريم ظاهرة لافتة للعيان وهو ضرب من ضروب الإعجاز النّظمي، وقد تنوّع وروده في الكتاب العزيز بين تكرار اللفظ والجملة ، وما كان ذلك إلاّ لخدمة المعنى الأساسي الذي دارت حوله الآية أو السورة .وغالبا ما يكون الغيُّ من ورودها بلاغيا لا يُدرك إلاّ من خلال التدقيق في السّياق توسّلا بالقرائن الممكنة.

يكاد يجمع العلماء على أنّ هذه الظاهرة الموجودة في القرآن الكريم تتّسم بصبغة خاصة فكلّ لفظ أو تركيب تكرّر في موضع مختلف عن الموضع السّابق له، حتما سيحمل دلالة أخرى غير الدلالة الأولى، فيكون بهذا التّكرار في اللّفظ لا المعنى ،وهذا ما أشار إليه الزمخشري حين وقوفه عند قوله تعالى: ﭽ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﭼ التكاثر:ف (كلاّ) الأولى فيها ردع وتنبيه لعدم الانشغال بأمور الدنيا الفانية ، في الثانية تكرار فيه تأكيد للردع إلاّ أنّ الثانية يبنى عليها معنى جديد لا تأكيد

للأوّل فحسب ،لأنّه جعل الثانية أبلغ في الوعيد معتمدا على حرف المعنى "ثم" فقال: وفي (ثُمَّ) تنبيه على أن الإنذار الثاني أبلغ من الأول."[31]

كما توقف الزمخشري عند هذه الظاهرة في سورة آل عمران أين تبرز في قوله تعالى:چ گ گ ڳ ڳ ڳ ڳ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ چ آل عمران.، وقوله تعالى:چ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ چآل عمران.وقوله تعالى :چ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە چ آل عمران.

ففي الآية الأولى يتّضح لنا هذا الإمداد السّياقي الذي تتلاحم مع سابقته في المعنى في قوله تعالى:ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ چآل عمران.

إذ جاءت المعاني متكاملة متراصة يعبّر عنها الزمخشري بالكلام المستأنف [32] ، فبعد إنقاذهم من الكفر وهدايتهم إلى السّراج المنير وهم على شفا حفرة من نار جهنم ، تتجاذبهم مشاحنات الجاهلية ، أصبحوا بنعمة الله إخوانا ، وبعد الإيمان تأتي دعوة الله لهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يتواصل الترابط السياقي مع التركيب القرآني الثاني الذي تضمن مدحا للأمة الإسلامية، هذه الأمة التي امتثلت لدعوة ربها، واتّبعت سنّة نبيّها –صلى الله عليه وسلم-فكانت خير أمّة أخرجت للناس طبّقت ما أمرت به ، فأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر .

أمّا التركيب القرآني الثالث ففيه إشارة إلى أهل الكتاب وما عاهدوا الله عليه من عبادات ، فهم إلى كسب رضوان الله متسارعون .

فتكرار الآيات السّابقة في سيّاق متكامل أكسب السورة وحدة موضوعية وهذا يؤكد حقيقة مفادها أنّ " سياق السورة القرآنية يتّسم بالاشتباك والارتباط حتى الالتحام،وذلك لأنّ معاني السّورة تتوجّه بكليّتها لخدمة موضوع واحد" .[33]

الخاتمة:

بهذه الوتيرة سار الزمخشري في كشّافه يبرز أهميّة السّياق في تحديد المعنى من جهة، و ترجيح الدّلالة المقصودة في كلّ آية من آيات القرآن الكريم من جهة أخرى، فالكلمة لا يتّضح معناها إلاّ من خلال ضمّها إلى ما يكمّلها في التركيب، وما يقتضيه النّص القرآني داخل سياق معيّن باعتباره وحدة سياقية كبرى . وهذا ما اتفق عليه جلّ علماء اللغة ، ففهم النص وتأويل معاني مفرداته لا يتم إلاّ من خلال السياق اللغوي (المقالي) بجميع مستوياته :بجميع مستوياته: النحوي (التركيبي)، والصرفي، والمعجمي. والسّياق غير اللغوي (المقامي) والذي تشكّله المواقف الخارجية المحيطة بالبنية اللغوية .

الإحالات:

1. ابن جني، الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، (د. ت).ج1، ص215-216.
2. الخليل بن أحمد الفراهيديالعين (المتوفى: 170هـ) ت: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال،ج5: ص:190.
3. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ت: عبدالسلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م ،ج 3، ص: 117

[4] ابن منظور لسان العرب ، : دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ ، مادة: سوق

5. تمام حسان البيان في روائع القرآن ، دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني ، عالم الكتب بيروت1413هـ 1993م ط1 ج: 1، ص: 221.
6. تمام حسان، قرينة السياق مطبعة عبير-جدة السعودية 1993م ص375.
7. الشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكرمكتبه الحلبي، مصر، (ط1)، 1358هـ - 1940م ص52.
8. الغزالي، المستصفى في علم الأصول، تحقيق، محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت (ط 1)، 1413هـ - 1993م. ص228،
9. - الزركشي: البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، (ط 1)، 1376هـ - 1957 مج 2،ص 200.
10. أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي، أصول السرخسي ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،(ط1) 1414 هـ- 1993 م ج 1، ص 164.
11. سيبويه ، الكتاب تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، (ط1) (د ت).ج3 ، ص 103.
12. ستيفن أولمن، دور الكلمة في اللّغة، ترجمة - كمال محمد بشر، دار غريب للطباعة والنشر، ص62.
13. تون فان دايك: علم النص مدخل متداخل لاختصاصات، دار القاهرة، القاهرة ط 1، 2001 م،ص 15.
14. ستيفن أولمن، دور الكلمة في اللّغة مرجع سابق ص62.
15. أحمد عمر مختار علم الدلالة عالم الكتب، القاهرة 1923 ، ص 37/36
16. انظر تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها،القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 1985 ص337.
17. محمد محمد أبو موسى، دلالات التركيب دراسة بلاغية مكتبة وهبة القاهرة ط 2 1984 ص112.
18. تمام حسان البيان في روائع القرآن مرجع سابق ص 8 وانظر اللغة العربية معناها و مبناها مرجع سابق ص 365 .
19. عبد اللطيف حماسة النحو والدلالة . دار السلام .ط 1 2000 ص 116.
20. تمام حسان البيان في روائع القرآن مرجع سابق ص221-222.
21. الزمخشري الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، (ط 1) (د ت).
22. نفسه ج 1 ص27-28..
23. نفسه ج1 ص 79.
24. نفسه ج1ص 869.
25. نفسه ج1ص 870.
26. نفسه ج1 ص663.
27. الجرجاني دلائل الإعجاز دار الكتاب العربي بيروت ط1 1995م ص 99.
28. الكشاف مرجع سابق ج2 ص1013-1014.
29. تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها مرجع سابق ص350-351 ، وانظر: الكشاف :ج1 ص 261.
30. الكشاف مرجع سابق ص25.
31. نفسه ج2 ص1375
32. نفسه ج1 ص 182-183

المراجع:

-ابن منظور لسان العرب ، : دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1414 هـ ، مادة: سوق

-أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي، أصول السرخسي ، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان،(ط1) 1414 هـ- 1993 م ج

-ابن جني، الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، (د. ت).ج1.

-ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ت: عبدالسلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: 1399هـ - 1979م ،ج 3،

-بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي: البرهان في علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، (ط 1)، 1376هـ - 1957 م

-تمام حسان:

-اللغة العربية معناها ومبناها القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 1985.

-البيان في روائع القرآن ، دراسة لغويّة وأسلوبيّة للنّص القرآني ، عالم الكتب بيروت1413هـ 1993م ط1 ج،1.

قرينة السّياق، مطبعة عبير- جدة السعودية 1993م
-تون فان دايك: علم النص مدخل متداخل لاختصاصات دار القاهرة، القاهرة ط 1 2001 م
-الجرجاني دلائل الإعجاز دار الكتاب العربي بيروت ط1 1995م
-الخليل بن أحمد الفراهدي العين (المتوفى: 170هـ) ت: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال،ج5.
-الزمخشري، الكشافعن حقائق غوامض التنزيل، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، (ط 1) (د ت).
-ستيفن أولمن، دور الكلمة في اللّغة، ترجمة - كمال محمد بشر، دار غريب للطباعة والنشر.
-سيبويه ، الكتاب تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، (ط1) (د ت).ج3 .
-الشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكرمكتبه الحلبي، مصر، (ط1)، 1358هـ - 1940م.
-عبد اللطيف حماسة النحو والدلالة . دار السلام .ط 1 2000م.
-الغزالي، المستصفى في علم الأصول، تحقيق، محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت (ط 1)، 1413هـ - 1993م.
-محمد محمد أبو موسى ، دلالات التركيب دراسة بلاغية مكتبة وهبة القاهرة ط 2 1984م.